جزيرة كريت (أقريطش)

ملامح جغرافيتها ودورها في الحضارة الإسلامية

للأستاذ الدكتور

محمد خميس الزوكه

قسم الجغرافيا

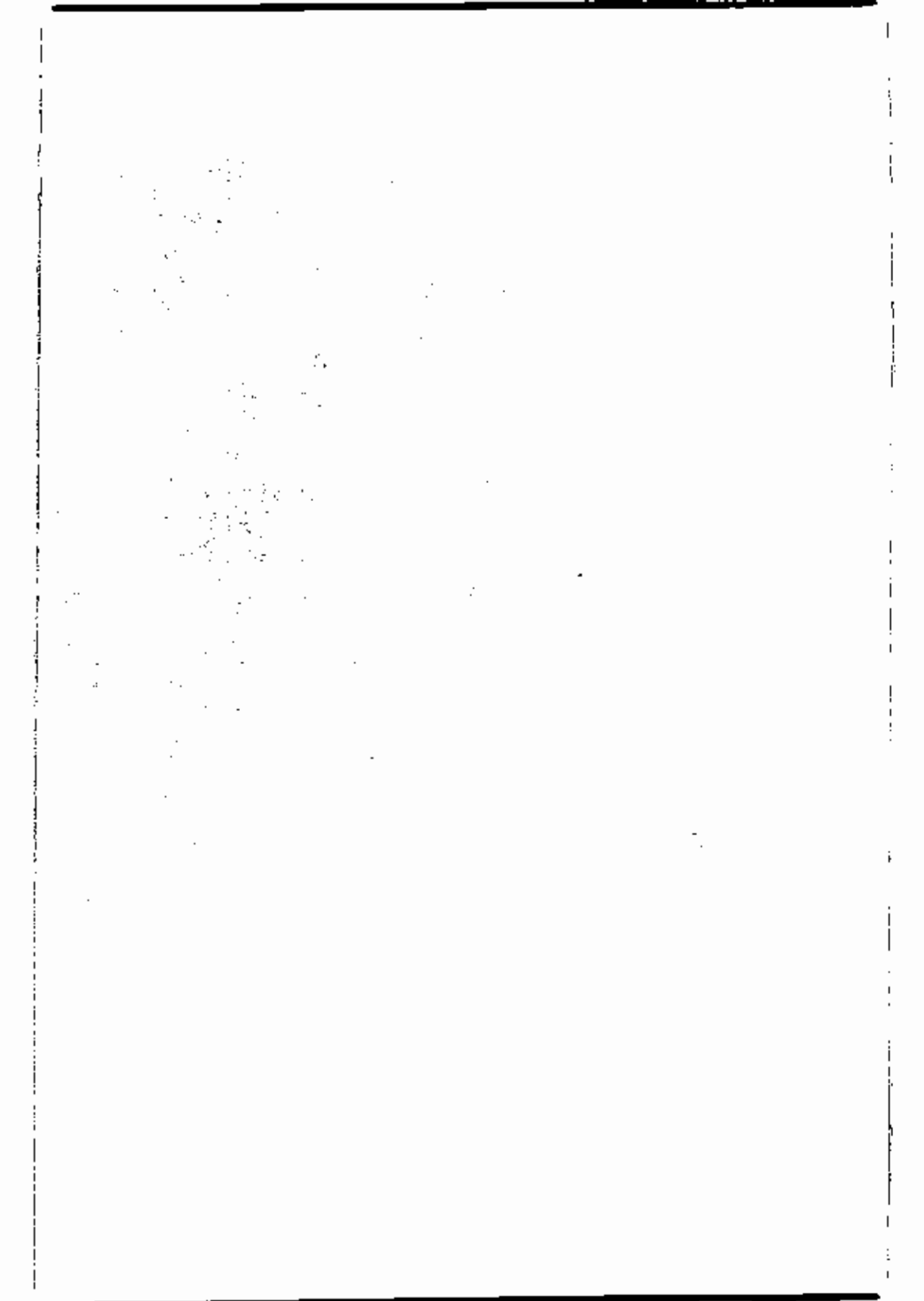

جزيرة كريت (أقريطش)

جزيرة يونانية بين دائرتي عرض ٥٥ ٣٤، ٤١ ٣٥ شمالا وخطي طول ٣٠ ٢٣، ١٩ ٢٦ شرقاً جنوبي بحر أيجه علي بعد ٣٢٠ كم من شمالي قارة افريقيا، ٥٢٣كم من مضايق البوسفور والدردنيل، وهي تبعد عن أثينا عاصمة اليونان بمسافة ٢٥٧كم ناحية الجنوب، والجزيرة مستطيلة الشكل تمتد بين الشروق والغرب لمسافة ٢٥٠ كم تقريباً، في حين يبلغ متوسط عرضها بين الشمال والجنوب نحو ٥٦ كم وإن كانت تضيق بشكل ملحوظ في أقصي نطاقها الشرقي (برزخ ليوابيترا) حيث لا يتجاوز عرضها ١١كم. وتبلغ جملة مساحتها ٨٣٣١ كم٢ (٣٢١٧ميل٢) وبذلك تعد أوسع الجزر اليونانية مساحة وخامس أكبر جزر البحر المتوسط بعد صقلية وسردينيا وقبرص وكورسيكا.

وتعد مدينة كانديا (Candia) الواقعة علي الساحل الشمالي قبالة بحر كريت أهم مراكز العمران وأشهرها في الجزيرة، واسم المدينة تحريف لكلمة خندق حيث يعد هذا النطاق السهلي هو أول موقع استقر فيه المسلمون فور وصولهم إلي الجزيرة خلال القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي)، ولحمايته وسهولة الدفاع عنه تم حفر خندق طويل حوله، ومن هنا كانت تسميته بالخندق الذي حرف بعد ذلك إي كانديا. وبعد اتحاد الجزيرة مع اليونان عام ١٩١٣ أصبحت مدينة كانيا (Kania) الواقعة علي الساحل الشمالي الغربي عاصمة الجزيرة. وتتمثل أهمية جزيرة أقريطش (كريت) في موقعها الجغرافي بشرقي حوض البحر المتوسط جنوبي بحر إيجه بالقرب

من كل من شبه جزيرة المورة - جنوب شرقي أوربا - والساحل الجنوبي الغربي لشبه جزيرة آسيا الصغري وسواحل الشام والساحل الشمالي لقارة افريقيا مما جعلها محطة هامة علي الطرق البحرية في هذا النطاق - شأنها في ذلك شأن جزيرتي قبرص ورودس - بل ونقطة إنطلاق ذات أهمية حضارية وعسكرية كبيرة كما يؤكده تاريخها الطويل ودورها في الأحداث التي تعرض لها إقليم شرقي البحر المتوسط.

الملامح الجغرافية العامة:

تتصف السواحل الشمالية للجزيرة بكثرة تعرجاتها التي أوجدت نطاقات يابسة متعمقة في البحر في شكل رؤوس مثل رأس سباثا (Spatha) في الغرب، ورأس سيدرو (sidero) وتعرف أحياناً باسم هيروس (Sidheros) في الشرق، كما أوجدت نطاقات بحرية محمية - أكبرها خليج ميرابيلو في أقصي الشرق - أعطت الفرصة لوجود مرافئ طبيعية عديدة في الشمال، عكس الوضع في الجنوب حيث يتصف الساحل الجنوبي للجزيرة بالاستقامة بصورة عامة.

وأقريطش جزيرة ذات طبيعة جبلية تمتد المرتفعات - متباينة المنسوب - بين الشرق والغرب في شكل كتل جبلية متصلة لا تنقطع سوي في أقصي الشرق في نطاق برزخ ليرا بيترا[1].

(١) ابراهيم شريف، أوربا - دراسة اقليمية لدول أشباه الجزر الجنوبية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٦٠، ص ١٢٢ .

وباستثناء السفوح الشمالية تنحدر سفوح الجزيرة بشكل سريع وحاد نحو سواحل أقريطش حتي أنها تكاد تشرف علي البحر بشكل مباشر في معظم المواقع مما أسهم في انعزالها طبيعياً وبالتالي ضآلة التواجد البشري والتركز العمراني، عكس الوضع بالنسبة للنطاق الشمالي من الجزيرة حيث تنحدر سفوح المرتفعات صوب خط الساحل بصورة تدريجية. ويفصل النطاقات الجبلية عن خط الساحل الشمالي نطاق واسع متصل من السهول وفيرة المياه والتي أسهمت في جعل هذه السهول أكثف نطاقات الجزيرة سكاناً وأكثرها استغلالاً وخاصة في مجالي الزراعة والرعي.

ويتخلل المرتفعات في نطاقها الشرقي بعض السهول الخصبة مثل سهل ميساراس الذي كونه نهر مترو بوليبوتامو الذي توجد منابعه العليا فوق قمة جبل إيدا (Ida) أعلي مواقع الجزيرة منسوباً إذ يبلغ ارتفاعه ٢٤٥٦ متراً (٥٠٥٨ قدم) فوق مستوي سطح البحر.

ويسود الجزيرة خصائص مناخ البحر المتوسط المتمثلة أساساً في ارتفاع درجة الحرارة وسيادة الجفاف خلال شهور الصيف حيث يبلغ متوسط درجة حرارة شهر يوليو (٢٦م) (٧٩ف) في مدينة إراكليون علي الساحل الشمالي للجزيرة، في حين تعتدل درجة الحرارة وتميل إلي الانخفاض خلال الشتاء حيث يبلغ متوسطها في شهر يناير ١٠م (٥٠ف) في نفس المدينة المشار إليها، ويزداد انخفاض درجة الحرارة فوق السفوح الجبلية. وتسقط الأمطار خلال شهور الشتاء وخاصة خلال الفترة الممتدة بين شهري نوفمبر ومارس، ويبلغ متوسط كمية الأمطار السنوية حوالي ٢٥ بوصة، وطبيعي أن

نصف الأراضي الزراعية لزراعة محاصيل الحبوب التي يأتي في مقدمتها القمح والشعير والشيلم، وتتمثل المحاصيل النقدية في الزيتون والعنب والموالح والخروب.

وتنتشر حرفة صيد الأسماك في العديد من المراكز الساحلية، في حين تتركز حرفة الرعي وخاصة رعي الأغنام والماعز علي السفوح الجبلية حيث المراعي محدودة الأهمية لضآلة كمية الأمطار في معظم الجهات. والنشاط الصناعي في الجزيرة محدود حيث يتراوح بين الصناعات البسيطة (عصر الزيتون وإنتاج الزيوت والصابون وتجفيف الفاكهة ودبغ الجلود) والصناعات اليدوية المنزلية.

تاريخ جزيرة أقريطش ودورها فى الحضارة الإسلامية:

تعد الجزيرة بحكم موقعها الجغرافي مراكزاً حضارياً وثقافياً هاماً في نطاق بحر إيجه وشرقي حوض البحر المتوسط وخاصة أنها كانت موطناً لحضارة قديمة ومتطورة عرفت باسم حضارة منوي (Minoan) - خلال الفترة الممتدة بين عامي ٣٠٠٠ - ٢١٠٠ ق. م[1] نسبة إلي الملك الاسطوري مينوس (Minos)، وهي حضارة اعتمدت علي معدن النحاس وسبيكة البرونز التي يعتقد بعض الباحثين أن معرفتها انتقلت إلي الجزيرة إما من سوريا أو من الأناضول، واعتماداً علي تطور نماذج منتجات حضارة أقريطش (كريت) من الفخار فقد صنفت تاريخياً إلي ثلاث مراحل هي القديمة والوسطى

(1) Collier's Encyclopedia, Vol. 7, N. Y., 1987, P. 430.

والحديثة، وهي مراحل تتفق تماماً ومراحل عصر الأسرات الفرعونية في مصر القديمة والوسطي والحديثة وخاصة أن العلاقات كانت وثيقة بين الحضارتين حتي أنه يمكن اعتبار الجزيرة هي المعبر أو الجسر الحضاري الذي عرفت أوربا عن طريقة حضارات الشرق التي ظهرت في كل من جنوب غربي آسيا وشمالي افريقيا، في حين كان دورها هامشياً بالنسبة لحضارات اليونان القديمة[1].

وبعد ضعف حضارات اليونان القديمة خضعت الجزيرة لحكم الرومان عام ٦٧ ق. م وأصبحت جزءاً من الامبراطورية البيزنطية عام ٣٩٥ ميلادية. واهتم المسلمون خلال العصر الأموي الذي بدأ عام ٦٦١م (٤٠هـ) بالبحر المتوسط وبتشييد قوة بحرية إسلامية، لذلك عندما بدأ العصر العباسي عام ٧٥٠م (١٣٢هـ) كان المسلمون يشكلون قوة مهابة الجانب في شرقي البحر المتوسط. وقد وصل المسلمون إلي الجزيرة بأعداد غير قليلة لأول مرة قادمين من الاسكندرية عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) وكانوا أصلاً من سكان ربض قرطبة الجنوبي المعروف باسم ربض شقندة[2] لذلك عرفوا بالربضيين الأندلسيين الذين سكنوا الاسكندرية منذ عام ٨١٨م، وفي عام ٨٤٥م (٢٣٠هـ) وصلوا إلي الجزيرة بأعداد كبيرة بقيادة حفص عمر بن عيسي الاندلسي المشهور

---

(1) Hammond's Advanced Reference Atlas, Acollection of Moden and Historical Maps, N. Y.

(٢) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الاسلام، الزهراء للأعلام العربي، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٨٧.

بالإقريطش، لذلك أطلق علي الجزيرة اسم أقريطش نسبة له وخاصة أنه قضي علي نفوذ الروم فيها بعد سيطرته علي حصونهم في الجزيرة[1]. وأدخل أقريطش في طاعة الدولة العباسية، وأصبحت الجزيرة ولاية عباسية تابعة لوالي مصر.

دور أقريطش فى الحضارة الاسلامية:

شيد المسلمون مدينة كانديا كعاصمة للجزيرة، وسبق الإشارة إلي أن اسم المدينة يشكل تحريفاً لكلمة خندق، واهتم المسلمون بأمور الجزيرة الاقتصادية وبأحوال السكان الذين دخلوا الاسلام بأعداد كبيرة، لذا انتشرت المساجد في ربوع الجزيرة، وتطورت اقتصاديات أقريطش وتوثقت علاقاتها التجارية مع الشام ومصر حيث كانت تستورد منهما السلع والمنتجات المصنعة وخاصة النسيج والأسلحة والسفن، في حين كانت تصدر إلي مصر علي وجه الخصوص الأخشاب اللازمة لصناعة السفن والأجبان والفاكهة المجففة والزيتون وزيته والعسل الذي عرف في الأسواق المصرية باسم الكند نسبة إلي كانديا عاصمة أقريطش.

وشكلت دمياط أهم الموانى المصرية المتعاملة مع أهل الجزيرة وهي الوظيفة التي قامت بها موانى يافا، قيسارية، حيفا، صور، صيدا علي ساحل الشام. وساهم أهل أقريطش في محاربة الدولة البيزنطية والاغارة علي سواحلها حتي أنهم انتصروا عليها انتصاراً بحرياً ساحقاً قرب جزيرة

(١) البلاذري، أحمد بن يحي جابر (٢٧٩هـ) فتوح البلدان - تحقيق صلاح الدين المنجد، ثلاثة أجزاء، القاهرة، ١٩٥٦ - ١٩٦٠.

تاسوس شمالي بحر إيجه عام ٨٢٧م (٢١٢هـ). كما اشترك أهل الجزيرة مع حملة المسلمين البحرية التي خرجت من طرطوس تحت قيادة «ليو الطرابلسي» عام ٨٦٢م (٢٤٨هـ) لمحاربة القوات البيزنطية في سالونيك علي سواحل تساليا والانتصار عليها عند جبل أتوس.

وسعت الدولة البيزنطية دون جدوي إلي الاستيلاء علي أقريطش أكثر من مرة بهدف إلغاء دورها كمنبر متقدم للدولة الاسلامية في جنوبي أوربا، وزاد نجاح الامبراطور رومانوس ليكابينوس في هزيمة الأسطول الإسلامي عام ٩٢٤م (٣١٢هـ) من أمل الدولة البيزنطية في الاستيلاء علي الجزيرة وخاصة بعد ضعف القوة البحرية لأقريطش أثر الهزيمة المشار إليها حتي تحقق لهم ما سعوا إليه طويلاً عام ٩٦٠م عندما نجح نيكفوروس فوكاس (Nicephorus Phocas) القائد البيزنطي في غزو الجزيرة والاستيلاء عليها والقضاء علي الحكم الاسلامي فيها مما شكل بداية لتضاؤل قوة المسلمين في حوض شرقي البحر المتوسط[1] الذي خضع بعد ذلك لحكم بيزنطة.

وظلت أقريطش خاضعة للحكم البيزنطي لمدة قرنين ونصف تقريباً حتي جاء عام ١٢٠٤ عندما باعها بونيفس (Boniface) مركيز مونتفيرات الذي آلت إليه الجزيرة لفينسيا[2] التي سيطرت علي الجزيرة قرابة أربعة قرون انتعشت خلال بعض فتراتها الأحوال الاقتصادية بحكم الموقع الجغرافي

(١) درويش النخيلي، السفن الاسلامية علي حروف المعجم، الاسكندرية، ١٩٧٤.

(2) Encyclopedia Britannica, Vol, 6, 1972, P. 740.

المتميز للجزيرة وظلت كانديا المدينة الإسلامية المنشأ والطابع عاصمة لأقريطش التي شهدت خلال هذه المرحلة من تاريخها حركات عصيان وتمرد من السكان كرد فعل لحكم فينسيا الاستبدادي الجائر وخاصة تجاه السكان المسلمين الذين عقدوا الآمال علي تركيا لتخليصهم من الظلم الواقع عليهم.

وتحققت آمال سكان أقريطش عام ١٦٤٥ عندما وصلت قوات تركية قوامها ٥٠ ألف مقاتل إلي إقليم مدينة كانيا، وتوالي سقوط مدن وأقاليم أقريطش في قبضة القوات التركية المسلمة بعد ذلك والتي أحكمت سيطرتها علي الجزيرة في حوالي عام ١٦٦٩ وظلت أقريطش تشكل جزءاً من الدولة العثمانية حتي عام ١٨٩٨ زاد خلالها أعداد المسلمين حتي شكلوا نحو نصف سكان الجزيرة الذين اقترب عددهم من ٣٠٠ ألف نسمة تقريباً، كما انتشرت المساجد والمباني ذات الطراز الاسلامي وتعددت مراكز التعليم.

وخلال فترة الثورة اليونانية علي الحكم التركي خلال العقد الثاني من القرن الثامن عشر وبسبب دسائس الدول الأوربية وخاصة بريطانيا وروسيا وفرنسا تمردت بعض العناصر المسيحية من سكان الجزيرة ضد الحكم التركي، وحاصرت بعض القوات التركية المتواجدة في الجزيرة، لذلك استنجد السلطان العثماني بمحمد علي باشا والي مصر لإعادة النظام والاستقرار في أقريطش، لذلك جهز محمد علي باشا جيشاً مصرياً قوامه أكثر من خمسة آلاف جندي من القوات البرية، بالإضافة إلي قوة بحرية تجاوز عددها ثمانين سفينة

تتراوح بين الحربية والتجارية[1] ووصلت القوات المشار إليها إلي الجزيرة في مايو عام ١٨٢٢م ونجحت في القضاء علي الثوار وإعادة النظام والأمن إلي أقريطش[2] التي أصبحت بعد ذلك تابعة لمحمد علي باشا مكافأة له علي دعمه للدولة العثمانية خلال حروب الثورة، ورغم نجاح مصطفي باشا حاكم الجزيرة الألباني الأصل[3] في إنعاش اقتصادياتها وشق العديد من الطرق وسيادة الأمن والاستقرار إلا أنه وتحت الضغوط التي مارستها الدول الأوربية علي محمود الثاني سلطان الدولة العثمانية أنهيت تبعية الجزيرة لوالي مصر عام ١٨٤٠ .

ونتيجة لضعف الدولة العثمانية ودسائس الدول الأوربية التي ساندت المسيحيين من السكان[4] اندلعت حركة تمرد وعصيان في أقريطش ضد تركيا مما أدي إلي انسحاب كافة القوات التركية من الجزيرة في ١٤ نوفمبر عام ١٨٩٨، وشكلت الجزيرة وحدة سياسية شبه مستقلة حتي عام ١٩١٣ عندما ضمت كلياً إلي اليونان تبعاً لاتفاقية لندن وأصبحت تعرف باللغة اليونانية باسم كريتي(Kriti).

(١) انضم إلي الأسطول المصري أعداد من السفن التركية والجزائرية.

(٢) تاريخ البحرية المصرية (تأليف نخبة من أساتذة جامعة الاسكندرية وخبراء القوات البحرية)، جامعة الاسكندرية، ١٩٧٣، ص ٦٣٧ .

(٣) كان محمد علي باشا والي مصر من أصل ألباني.

(٤) محمد السيد غلاب وآخرون، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، جامعة الأمام محمد بن سعود الاسلامية، كلية العلوم الإجتماعية، الرياض، ١٩٧٩ (١٣٩٩هـ)، ص ٧١٨ .

أهم المراجع

أولاً : باللغة العربية :

١- إبراهيم شريف، أوربا - دراسة اقليمية لدول أشباه الجزر الجنوبية، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٦٠ .

٢- البلاذري، أحمد بن يحي جابر (٢٧٩ هـ) فتوح البلدان - تحقيق صلاح الدين المنجد، ثلاثة أجزاء، القاهرة، ١٩٥٦ - ١٩٦٠ .

٣- تاريخ البحرية المصرية (تأليف نخبة من أساتذة جامعة الاسكندرية وخبراء القوات البحرية) جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

٤- حسين مؤنس، أطلس تاريخ الاسلام، الزهراء للاعلام العربي، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٨٧ .

٥- درويش النخيلي، السفن الاسلامية علي حروف المعجم، الاسكندرية، ١٩٧٤ .

٦- محمد السيد غلاب وآخرون، البلدان الاسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، الرياض، ١٩٧٩ (١٣٩٩هـ).

ثانياً: باللغة الإنجليزية:

1- Collier's Encyclopedia, Vol. 7, N. Y., 1987 .

2- Encyclopedia Britannica, Vol. 6, 1972 .

3- Hammond's Advanced Reference Atlas, Acollection of Modern and Historical Maps, N. Y.

4- Moore, W. G., The Penguin Encyclopedia of Places, Second Edition, London, 1978.

5- Webster's New Geographical Dictionary, 1984.

جزيرة كريت وأقريطش

الكلمة التى ألقاها

الأستاذ الدكتور السيد عبد العاطى السيد

أستاذ ورئيس قسم الاجتماع

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

فى الجلسة الافتتاحية للندوة العلمية التى عقدتها الكلية بمناسبة

الاحتفال بيوم البيئة فى ١٥/١٢/١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ بدء الخليقة ، والإنسان يسطر قصة كفاحه الدائب ونضاله المستمر مع البيئة، سعيا لفهمها والتعرف على أسرارها ، واستهدافا للسيطرة عليها وتسخيرها لخدمته ورفاهيته . وما التاريخ البشرى إلا سجل حافل بمنجزات الإنسان فى هذا المضمار ، كما أن مراحله المتعاقبة ــ بدءا بالعصر الحجرى القديم ، وانتهاء بعصر الفضاء ــ ليست الا فترات واسعة استطاع الإنسان قطعها على طريق التوافق مع البيئة من حوله أوالتعرف على أسرارها أو السيطرة عليها . ومع أن نجاح الإنسان فى توافقه مع البيئة من حوله يرجع فى بعض جوانبه إلى ما فطر عليه الإنسان من قدرات طبيعية شأنه فى ذلك شأن غيره من الكائنات الحية الأخرى ، ومع أن قدرا كبيرا من منجزاته كان تجسيدا لحقيقة أن الحاجة أم الاختراع ، وانعكاسا لما انفرد به من قدرة علىالتفكير والاستنتاج ، إلا أن الجانب الأكبر من هذا النجاح وتلك المنجزات كان نتاجا لما طوره من معرفة علمية فاعدتها البحث وقمتها الفهم الواعى للقوانين وسلسلة الأسباب والمسببات ، فكان العلم والمعرفة العلمية أعظم إنجاز حققه على مر هذا التاريخ الطويل .

لقد تأمل الانسان فى البيئة والحياة من حوله ، وهداه تأمله وتفكيره المستمر إلى تطوير الكثير من الأفكار التى رأى فيها إجابة لتساؤلاته واشباعا لرغبته فى فهم الكون من حوله . وبطبيعة الحال عكست تلك الأفكار طابع المرحلة الفكرية التى بلغها فى كل مرة . فكانت أفكارا متواترة حينا ، غيبية يونوبية حينا آخر ، فلسفية وميتافيزيقية فى معظم الأحيان ، ولكنها مع ذلك أقنعته آنذاك كمحاولة للفهم والتفسير . وفى نهاية

المطاف ، ومن خلال تراكم هذه الأفكار وتعديلها المستمر ، طور الإنسان نسقا من المعرفة ومنهجا للبحث توخى فيهما الارتقاء بقدرته على التحليل والتفسير والتنبؤ . ومن ثم تتابع ظهور العلوم المختلفة كأنساق معرفية تستهدف الكشف عن القوانين التى تحكم سير الظواهر من حوله وتربط سلسلة الأسباب بالمسببات ، لتفسر ماهو كائن والتنبؤ بما سوف يكون أو التخطيط له .

والمتتبع لتاريخ نشأة العلوم وتطورها ، يدرك على الفور أن أسبق هذه العلوم نشأة كانت تلك التى تتخذ من البيئة موضوعا لها . فقد كانت علوم كالفلك والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا وما ارتبط بها أو تفرع عنها ، أول ما استطاع الإنسان أن يطوره من معارف علمية دقيقة . كما أن المتعمق لطبيعة هذه العلوم يدرك وعلى الفور أيضا أنها كانت قد استهدفت فهم الحياة والبيئة من حول الإنسان ، كل فى نطاق خاص مما استوعبه هذا الكون الفسيح . لقد كانت السمة الغالبة على كل ما طوره الإنسان من أنساق معرفية وعلمية ، أنها ذات طابع تحليلى انقسامى ، بمعنى أن كل منها كان ولايزال يركز على جانب واحد بعينه من جوانب هذا الكون الفسيح . ومن ثم تعددت العلوم وتنوعت بتعدد جوانب هذا العالم التى تصدت لدراستها . فإن اشترك بعضها فى دراسة نفس الجانب ، اختلفت المنظورات وتعددت المداخل لتبدو فى النهاية وكأنها علوم مستقلة عن بعضها البعض، رغم مافقد يقوم بينها من استخدام متبادل لنتائجها ومعطياتها . ومع ذلك ، ورغم هذا التنوع والاستقلال الذى بدت عليه العلوم تحت مايشار إليه بالتخصص ، كانت هناك حقيقة واحدة وكامنة هى أنها جميعا تدور فى فلك الواحد وتسعى لتحقيق نفس الهدف ، ألا وهو فهم العالم من حولنا والوقوف على أسراره .

لقد ظلت ساحة البحث العلمي ، ولفترات طويلة ، خالية من أي محاولة منظمة للتركيب بين نتائج المعالجات المتخصصة لجوانب هذا العالم ، كما خلت أيضا من أي محاولة لتوضيح العلاقة بين المحاور الرئيسة لهذا الكون ألا وهي الحياة والبيئة والكائن الحي ..... لقد كانت كتابات داروين وبخاصة كتابه في أصل الأنواع بمثابة أول محاولة علمية ميدانية النظريق لفهم جوانب العلاقة بين هذا الثالوث المحوري . ومنذ هذا الوقت ، بات كل تفكير في الحياة بعيدا عن البيئة أمرا مستحيلا وبخاصة فيما يتعلق بالحياة الإنسانية . لم ينظر داروين إلى الحياة على أنها تتوافق فحسب لعدد متنوع من البيئات ، بل على أنها تعبير عن البيئة وعن اتجاهاتها الفطرية أو الغريزية . ومن ثم بشر داروين بظهور علم جديد يناط به مهمة إيضاح وتفسير هذه الروابط الوثيقة بين البيئة والحياة كضرورة حتمية لتحقيق الفهم الشمولي والمتكامل لأسرار الكون والطبيعة من حولنا . ولقد بات ما توقعه داروين واقعا ، فكان تنوع أشكال الحياة وقوانينه وأسبابه موضوعا لعلم الوراثة ، كما أصبح البحث في ارتباط أشكال الحياة المتنوعة بيئاتهابشكل محور الاهتمام فيما عرف بعد ذلك باسم " الدراسات الايكولوجية " . وبالطبع كانت تجمعات الكائنات الحية التي تميز بباطنها البيئة والتي تنتظم على أساس حيوي وطبيعي بحت ، كعالم النفطريات والنبات والحيوان من أسبق المجالات التي شيدت تطبيق وجهة النظر الايكولوجية . ومن ثم كانت ايكولوجيا النبات وايكولوجيا الحيوان بمثابة أول محاولة علمية منظمة لدراسة علاقة الكائن الحي والبيئة . بدأت على يد ارنست هايكل يشير بها إلى الدراسة التي تعنى بتحليل بناءات الكائنات الحية وسلوكيا في علاقاتها وتأثرها بالعيش مع كائنات أخرى من أنواعها أو أنواع أخرى ، وتأثرها أيضا بخصائص مواطنها التي تعيش فيها .

كذلك كان من الطبيعي أيضا أن تمتد وجهة النظر الايكولوجية لتستوعب دراسة الإنسان لمحاولة فهم وتحليل شبكة الحياة وعملياتها وموجهاتها في المجتمع الإنساني . غير

الطبيعي متعدد التغيرات كما يحدث في البيئة على نحو طبيعي غير معملي " . ومن ثم شاع في علم النفس المعاصر استخدام مفهوم " البيئة الايكولوجية " للسلوك ، يقصد بها المجموعة الكلية والمتكاملة من العوامل التي تثير السلوك وتنشطه ، كمدخل لتحديد ما لتأثير المتغيرات البيئية من دور في تنوع أنماط السلوك . ولعلنا نجد في اهتمام بعض علماء النفس المعاصرين بتحديد دور العوامل غير السيكولوجية في السلوك الإنساني تطبيقا واضحا لمفهوم البيئة الايكولوجية التي تمثل قاعدة للسلوك الإنساني كمجموعة من الظواهر التي تحدث حدوثا طبيعيا وتتميز بوقوعها خارج جسم الإنسان ، وكمدخل لتفسير السلوك في ضوء قوانين أخرى غير القوانين التي تحكم السلوك الفردي .

وفي مجال الدراسات الأنثروبولوجية ، كانت العلاقة الوثيقة بين العوامل البيئية وطرق الحياة في المجتمعات البسيطة والتقليدية بمثابة بداية الاهتمام العلمي بدراسة قضايا البيئة من منظور إنساني اجتماعي وثقافي أوسع يتخطى حدود المنظور الطبيعي الضيق ، أو ماعرف باسم الحتمية البيئية : ظهر ذلك واضحا في الدراسات التي أجراها عدد من الثقاة من المشتغلين بالأنثروبولوجيا ، من أمثال كروبير وهيرسكوفيتش في تأكيدهما على دراسة المشكلات الناتجة عن تفاعل طرق حياة الشعوب والجماعات بالمواطن التي تمارس فيها هذه الطرق ، وكذلك فورد في تأكيده على ماأسماه "بالنمط الثقافي " كعامل يتوسط علاقة النشاط الإنساني بالبيئة الطبيعية . بل كثيرا ما نجد محاولة استخدام البيئة وظروفها كتفسير للظواهر الثقافية ، مثال ذلك ما ذهب إليه سايك في تأكيده على أن معرفة ثقافة أي شعب من الشعوب لن تكون كاملة ومتكاملة مالم ينظر إليها على أنها كل متكامل ، أي مالم يفسر كل توزيع مكاني لعناصرها وكمثل تركيب لتنوعاتها مع الظروف المحلية البيئية . ولقد كانت محاولة فهم وتفسير التفاعل القائم بين الثقافة والبيئة في ضوء علاقة سببية واضحة ومتبادلة دون الرجوع لحتمية جغرافية متطرفة ، من أهم ماتميزت به أعمال جوليان ستيوارد ، وخاصة في تطويره لما

أسماه " بالأيكولوجيا الثقافية " كدراسة للعمليات التي من خلالها تتوافق المجتمعات البشرية ، وما يترتب على هذه التوافقات المجتمعية من تحولات اجتماعية جوهرية أو تطور اجتماعي ، وتحليل هذه التوافقات والتحولات في حدود ارتباطها بالعمليات الأخرى للتغير . لذا فإن المشكلة المحورية التي تعنى بها الايكولوجيا الثقافية هي تحليل التفاعل القائم بين المجتمعات والنظم الاجتماعية بعضها ببعض من ناحية ، وبينها وبين البيئة الطبيعية من ناحية أخرى . إن تنوع التكنولوجيات المستخدمة في التعامل مع البيئة واستغلالها أوجد تنوعا مصاحبا للتنظيمات الاجتماعية والثقافية معا ، حتى أنه ما أن تحدث تجديدات تكنولوجية تزيد من القدرة التوافقية للإنسان ومن سيطرته على البيئة سرعان ماتصاحب بأنماط مستحدثة للسلوك لتغير مغزى كل من البيئة والثقافة معا .

ويشارك علم السياسة هو الآخر بقدر لايستهان به من الاهتمام بالبيئة ، فقد عنى الكثير من علماء السياسة المعاصرين بتطوير وبلورة عدد من الأفكار والتصورات السياسية التي وجهت شطر الحل السياسي لمشكلات البيئة . ولعل من أبرز هذه التصورات ما عرف " بإدارة البيئة " التي تتضمن تشكيل البيئة الإنسانية عن طريق الإنسان نفسه ، إلى جانب ضبط السلوك والفعل الإنساني في علاقته بالبيئة . وتتمثل القضية الأساسية التي يثيرها أو يطرحها هذا المفهوم في أن مخططات وبرامج السياسة البيئية تتكاثف مع زيادة احتياجات الإنسان وتزايد اعتماده على البيئة الأمر الذي يؤدي إلى إيجاد نوعين من الظروف التي تحتم ضرورة وضع إدارة معينة للبيئة : وأول هذه الظروف هي زيادة الصراع الاجتماعي إلى الحد الذي يصبح تدخل الدولة لتنظيم استخدام البيئة أمرا حتميا ومفروضا ، أما ثاني هذه الظروف فتتمثل في تزايد الضغط المتراكم على البيئة بالدرجة التي تحتم التدخل العام لحماية إمكانات سبل العيش والحياة من الدمار والتلف . وباختصار، تنطلق الدراسات السياسية اليوم من فكرة ارتباط السياسة ارتباطا حادا بالقاعدة أو الأساس أو البيئة التي تتخذ فيها القرارات السياسية

وتنفذ في إطارها ، ومن تأكيد واضح وصريح على فكرة التفاعل بين الإنسان والبيئة ، الأمر الذى يفسر احتواء التحليلات السياسية على العديد من الأفكار والمصطلحات البيئية والايكولوجية .

لايقتصر الاهتمام بقضايا البيئة ومشكلاتها على ماذكرناه على سبيل المثال من تناول لهذه القضايا في الدراسات الجغرافية أو الاقتصادية أو النفسية أو السياسية أو الاجتماعية ، بل أنه طالما بقيت البيئة بجوانبها الحيوية والفيزيقية والاجتماعية ، وطالما ظل الإنسان سواء باعتباره كائنا حيا بيولوجيا أو باعتباره كائنا اجتماعيا ، وطالما استمرت علاقة الإنسان بالبيئة تشكل محور الاهتمام في عدد من مجالات البحث والمعرفة العلمية ، كان من الصعب علينا أن نحصر كل هذه الاهتمامات حصرا شاملا . ولكن ما نريد أن نؤكده هنا هو أن إضافة البعد الإنسانى والاجتماعى إلى مفهوم البيئة سوف يسلم في النهاية إلى فهم نظرى وتطبيقى للحقيقة المتعددة الأبعاد للمجتمع هنا هو النسيج المتكامل التاريخى والثقافى والوظيفى والمستقبلى الذى يصنع فيه الإنسان بعقله ومعتقداته وقيمه وضميره وآماله وآلامه خطوطا تتشابك وكأنها طرق توصل جميعا إلى البيئة بكل مافيها من ثراء أو فقر ، وبكل مافيها من إمكانات يستطيع الإنسان أن يستخدمها لخبرته المتاحة أو التى يمكن أن يتيحها له شيوعه من رفاق في أماكن متفرقة من بيئة عالم الحياة الإنسانية . بهذا نستطيع أن نتمسك كفاءة ومشروعية تناول علم الاجتماع أو على الأقل اهتمامه بقضايا البيئة ومشكلاتها . ونستطيع في عجالة أن نميز بين ثلاثة مجالات لهذا الاهتمام هى :

١) المجال الاقتصادى : ترتبط مشكلات هذا المجال ارتباطا وثيقا بمفهوم اساسى من مفهومات التركيب البيئى أو الايكولوجى وهو التكنولوجيا . فقد أدى ظهور المجتمع

الحضرى كتنظيم معيشى أو ميكانيزم اقتصادى متميز إلى تغير واضح فى الطريقة التى يعيش بها الإنسان حياته ، وتمثلت أكثر مظاهر التغير وضوحا فى تقسيم العمل والتخصص الذى أدى إلى زيادة الإنتاج . وبقدر ما غيرت حياة المدينة من مضمون العديد من المفاهيم الاقتصادية الهامة كالعمل والملكية والفقر والقوة والرفاهية ، بقدر ما غيرت من أنماط التفاعل والعلاقات الاجتماعية بين مختلف العناصر المشتركة فى الموقف الاقتصادى . فقد دفع التخصص وتقسيم العمل فى البلدان المتقدمة إلى مزيد من التقدم التكنولوجى وإلى تحول واضح نحو الطاقة غير البشرية وأدى بدوره إلى دفع عجلة التصنيع وظهور نظام المصنع وارتفاع مستويات المعيشة واتساع نطاق السوق والإنتاج،مما أوجد فى النهاية أشكالا جديدة من التنظيمات المعيشية للأفراد وانعكست آثار ذلك كله بوضوح على الترتيبات والتوزيعات المكانية للأفراد والنشاطات وعلى أنماط استخدام الأرض وفى اتجاهات النمو الحضرى والتنقلات السكانية والتركيب المهنى ومستويات التحصيل والإنجاز ...الخ ولاتزال مجموعة هذة النتائج والآثار تمثل حقلا خصبا لعدد متنوع وهائل من الدراسات الأيكولوجية التى تعنى بقضايا البيئة ومشكلاتها .

٢) المجال الاجتماعى : تعكس مشكلات هذا المجال الدور الواضح الذى لعبته المدينة كبيئة وكتنظيم فى حياة الأفراد والجماعات . فالحضرية ليست مجرد تنظيم اقتصادى له خصائصه المتميزة ، كما أنها ليست مجرد عيش أو إقامة فى مكان دون آخر . بل هى طريقة للحياة والفكر والسلوك . إن الخصائص البيزيقية والايكولوجية للمجتمع الحضرى كالحجم والكثافة والتغاير تؤثر وبوضوح فى طبيعة وكثافة العلاقات الاجتماعية وفى ميكانيزمات التفاعل والسلوك وموجهاته . لذلك كانت عمليات التحضر وخاصة عندما تصاحبها معدلات التغاير بين السكان تميل إلى تقويض الأنماط التقليدية للسلوك وإلى إيجاد العديد من مشكلات التفكك الاجتماعى والشخصى

كانحراف الاحداث والجريمة والبغاء وادمان المخدرات والسكرات والانتحار والأمراض العقلية والتفكك الأسرى ومشكلات التكيف والتوترات السياسية والاجتماعية .... الخ إن ارتباط هذه المشكلات ببيئة المدينة لايزال يمثل دافعا قويا للمزيد من الدراسات الاجتماعية التى تعنى بقضايا البيئة ، وهنا تتأثر مناطق الأحياء المتخلفة ومناطق التحول ومناطق سكنى الأقليات والمناطق العشوائية بنصيب وافر من اهتمام الباحث الاجتماعى المعنى بمشكلات البيئة وقضاياها ، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار ارتباط التوزيع المكانى لهذه المشكلات بالخصائص الايكولوجية والبيئية لهذه المناطق .

٣) المجال الفيزيقى : ترتبط مشكلات هذا المجال بالنظرة إلى المجتمع كبناء أو تركيب فيزيقى ، إن نشأة المدن وتطورها قد عدل وبعمق من الجانب الفيزيقى المادى لحياة الإنسان ، تمثل ذلك فى تعديل أنماط استخدام الأرض ونماذج الإسكان ، وخلق أشكالا جديدة من المرافق والخدمات العامة كشبكات المياه والكهرباء والصرف الصحى والمواصلات ... الخ كما أن ما ارتبط بنمو المدن من ازدحام سكانى سريع وتوسع صناعى مفرط أوجد مشكلات بيئية من نوع جديد ، يأتى فى مقدمتها تلوث البيئة الحضرية وما يرتبط به من مشكلات الصحة العامة . وباختصار فإن ارتباط التحضر بمشكلات ذات طابع فيزيقى أمر لايمكن حصره ، ويكفى أن نشير إلى بعض هذه المشكلات التى كانت ولاتزال موضوعا أساسيا دارت حوله الدراسات الاجتماعية فى اهتمامها بقضايا البيئة ومشكلاتها :

أولا : مشاكل استخدام الأرض . فالمعروف أن المنافسة على الأرض تلعب فى كل أرجاء العالم دورا بارزا فى تشكيل البناء الايكولوجى للمدينة . كما أنها تحدد مضمون استخدام الأرض وتطبيقاته العملية . ومن أبرز التحديات التى يواجهها المجتمع الحضرى هى كيف يستطيع أن يضع الحدود الفاصلة والقاطعة لهذه الاستخدامات المتنافسة بطريقة يفترض فيها أن تقابل احتياجاته المستقبلية . وهنا تكمن

أهمية البحث الايكولوجي واضحا في تحديد الأنماط الراهنة لاستخدام الأرض وتحديد الاحتياجات المستقبلية من خلال ما يقدمه من مسوح وخرائط لاستخدامات الأرض وتشخيص المشكلات البيئية التي تنجم عن أنماط بعينها سواء كانت أنماطا راهنة أو محتملة ومتوقعة .

ثانيا : مشاكل الإسكان : فقد جذب انتشار الصناعة وما ترتب عليها من كثافة سكانية عالية في المدن والمراكز الصناعية الاهتمام بمشكلات الإسكان والظروف السكنية السيئة وغير الصحية للغالبية العظمى من سكان المدن ، وما يترتب عليها من آثار صحية وأخلاقية بالغة الأهمية ، خاصة بعد أن عدت هذه المشكلة من المصاحبات اللازمة للتحضر في كثير من بلدان العالم . لقد ارتبط ظهور المدينة بانتشار الأحياء المتخلفة ومناطق الأكواخ ، وساعد على تفاقم المشكلة ماتميزت به حركات التركيز السكاني في المدن من سرعة ملحوظة ومضطردة ، إلى جانب انخفاض مستويات الدخل والمعيشة مما جعل السكن غير الصحي وغير الملائم ضرورة لامفر منها أمام الطبقات الفقيرة ، علاوة على افتقار معظم مدن العالم النامي إلى التخطيط السكني القومي والمحلي وترك العنان للمنافسة الاقتصادية بين الأنماط المختلفة لاستخدام الأرض دون تدخل أو توجيه حكومي . إن دراسة المشكلة السكنية ومصاحباتها المكانية والفيزيقية والاجتماعية والسلوكية تعد مجالا خصبا للدراسات الاجتماعية التي تعنى بقضايا البيئة ، سوف تمكن من وضع الأسس العلمية لسياسات السكانية الرشيدة ، كما تعين على إنجاح برامج وسياسات تخطيط المدن وتوجيه حركة تطوير المدن الجديدة ، من خلال ماتوفره من إطار مرجعي لتحليل العلاقات الاجتماعية والسلوك الإنساني ، ومن تحليل فيزيقي واجتماعي لأبعاد المشكلة السكنية ومظاهرها ونتائجها المختلفة قوامه التعرف على خصائص الموقع أو المناطق السكنية الراهنة من حيث حجمها وقيمتها ومظهرها الفيزيقي ودرجة تواجدها وعلى أشكال العلاقات الاجتماعية التي تفرضها أنماط التوزيع المكاني وأبعاد التمايز الاجتماعي والاقتصادي والطبقي للمناطق السكنية

ثالثا : مشكلات التوطن الصناعي كانت الصناعة ولاتزال في معظم بلدان العالم عاملا هاما في تحديد البناء الفيزيقي والايكولوجي للمدينة بسبب تعطيها الخاص لاستخدام الأرض وارتباطها بعوامل أخرى مسيطرة على بيئة المدينة وتأثيرها الواضح على الأنماط الأخرى لاستخدام الأرض . إن مشكلات التوطن والتركيز أو التخلخل الصناعي تمثل هي الأخرى جانبا لايستهان به من الاهتمام السوسيولوجي بمشكلات البيئة ، خاصة من حيث أسبابه ونتائجه الايكولوجية في مجال النقل والبيئة الأساسية وتلوث البيئة والإسكان والمرافق وإعادة توزيع السكان .....الخ .

ويعتبر تلوث البيئة في المدن الصناعية من أهم المشكلات الناجمة عن التوطن الصناعي والتي تستأثر بقدر وافر من الاهتمام ليس فقط في مجال علم الاجتماع بل وأيضا في مجالات أخرى كالصحة العامة والتخطيط الحضري وغيرها . فالملاحظ أنه بقدر ما ساعد انتشار الصناعة على زيادة معدلات التحضر في العالم بقدر ما أدى إلى تلوث المناخ الطبيعي للمدن والمراكز الحضرية الكبرى . لقد غدت حاجة ساكن المدينة إلى الهواء النقي مثلا تفوق أضعافا مضاعفة حاجته إلى الأكل والمشرب . وفي كثير من بلدان العالم بلغ تلوث ما يستنشقه الإنسان من هواء درجة تنذر بالخطر لما ارتبط به من أمراض مستعصية على الشفاء . كما أن تلوث موارد المياه وخاصة التلوث الحراري والتلوث بفذر البالوعات والتلوث الناجم عن المخلفات الصناعية والتلوث بالنفايات والتلوث السمعي وغير ذلك من أشكال تلوث البيئة تمثل كلها جانبا من الاهتمام السوسيولوجي بدراسة البيئة لما يترتب عليها من آثار بالغة الخطورة على الإنسان والمجتمع .

تلك بعض مجالات الاهتمام السوسيولوجي بقضايا البيئة ومشكلاتها ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر . ولن نركز كثيرا على تحليل

علم الاجتماع ، إلا أن ذلك لايعنى استبعاد مجالات معرفية وتطبيقية أخرى عنيت أيضا بقضايا البيئة . فهناك فى الحقيقة مجالات عدة عنيت بمعالجة البيئة ومدى تأثيرها فى رفاهية الإنسان وتحديد علاقته ببيئته ، منها على سبيل المثال لاالحصر أيضا ، علوم تصميم البيئة بعامة والعلوم التى تعنى بإدارة الموارد الطبيعية بخاصة . ويندرج تحت هذا المجال علم الهندسة كعلم لتصميم التكنولوجيا التى يمكن بواسطتها معالجة البيئة والسيطرة عليها ، وأيضا الفنون المعمارية أو الهندسة المعمارية على اعتبار أن فن العمارة شأنه أن الإنسان لايمكن تصوره بمعزل عن البيئة الخارجية أو بعيدا عن النظرة الشمولية متعددة الأبعاد . إن الفن المعمارى أكثر النشاطات الإنسانية ارتباطا بالبيئة لما هناك من علاقة وثيقة فى تصورى بين مايمكن أن نسميه بالحوى المعمارى والقصد به المبنى أو المسكن وبين المحتوى البشرى أى الإنسان ، ومن علاقة وثيقة بين الاعتبارات الإنسانية والجمالية والبيئية فى هذا المجال . هناك أيضا هندسة الموارد الطبيعية وإدارتها كمحاولة لتطوير التنظيم المعيشى الملائم للإنسان من خلال الاستخدام العلمى المتقن لتسخير البيئة واستثمار مواردها على النحو الأمثل . كذلك لعبت البيئة الطبيعية وعلى مر السنين دورا هاما فى تشكيل الظروف المرتبطة بالصحة والمرض حتى غدت علاقة الإنسان بالبيئة فى إطار الصحة والمرض من المشكلات العلمية والتطبيقى التى دفعت لمزيد من الدراسات والبحوث فى مجال الطب والصحة البيئة بهدف تنظيم العلاقة الصحية بالبيئة . إن تنوع الأمراض والأوبئة التى تصيب الإنسان بتنوع البيئات واختلاف ظروفها كان دافعا إلى تأكيد هذه العلاقة وإلى إحراز التقدم الملحوظ فى تكنولوجيا العلاج والوقاية للحد من انتشار الأوبئة والأمراض البيئية . لقد بلورت هذه المجالات التطبيقية إجابات امبريقية لسؤال محورى يدور حول توافق المجموع البشرية باعتبارها جماعات متفاعلة ذات ارتباط متبادل مع الظروف البيئة المحيطة وذلك فى مجال إشباع الحاجات المعيشية ومن أجل زيادة ظروف الرفاهية بما لايضمن استمرار بقائها فحسب بل وبطريقة متزايدة من السيطرة على البيئة وتسخيرها لخدمة الإنسان ورفاهيته .